فصل من سيرة مروية
فلاديمير نابوكوف

ترجمة مايا أبو الحيات

بالمهد الذي يهتز فوق الهاوية، والفطرة السليمة، نعرف أن وجودنا ليس أكثر من شقّ في الضوء، بين أبديتين من الظلام. ورغم أن الأبديتين توأمان متطابقان، إلا أن المرء ينظر إلى هاوية ما قبل الولادة، بهدوء أكبر، من تلك الأبدية التي يتوجه إليها (بسرعة خمس وأربعين ألف نبضة في الساعة).

رغم هذا، وكطفل مصاب برهاب الزمن، أصابه الذعر عندما رأى للمرة الأولى، فيلماً منزلي الصنع صوّر قبل أسابيع قليلة من ولادته. شاهد عالما لم يختلف عن الواقع كثيرا – المنزل ذاته، الأشخاص أنفسهم- لكنه أدرك تلك اللحظة أنه لم يكن هناك على الإطلاق، وأن أحدا لم ينع غيابه. التقط إيماءةً غامضة في عيني أمه التي تلوح من نافذة، أعلى الدرج، تلك الإيماءة غير المألوفة في عينيها أزعجته، بدت كأنها نوع من الوداع الغامض. لكن ما أخافه فعلا هو مشهد عربة الأطفال الجديدة الواقفة باعتداد في الرواق. الواقفة كأنها تابوت، حتى لو كانت فارغة، وكأن عظامه في عرض معاكس للأحداث قد تحللت، أعلم أن هواجس كهذه ليست غريبة عن حياة الأطفال، دعني أقولها بطريقة مختلفة، أول الأشياء وآخرها غالبا ما يتم تقييمها بنوع من المراهقة الفكرية، ربما ما عدا تلك التي تستند إلى تربية دينية متينة. تتوقع الطبيعة من الرجل الناضج أن يتقبل هذين الفراغين الأسودين، قبل وبعد، بالصلابة ذاتها، التي يتقبل فيها الأمور العجيبة التي تحدث بينهما. الخيال، الفرحة الهائلة بالخلود وعدم النضج، يجب أن تكون محدودة. فمن أجل أن نتمتع بالحياة، يجب أن لا نتمتع بها كثيرا.

لقد تمردت على هذا الأمر، أشعر بالحاجة للإعلان عن تمردي والاشتباك مع الآخرين. مرارا وتكرارا بذل عقلي جهدا هائلا لتمييز الضعف الذي تحمله الومضات الشخصية، في ظلمات جانبي حياتي.

هذه الظلمة التي صنعتها جدران الوقت، التي تفصلني وتفصل قبضات يدي المكلومة عن العالم المتحرر، من حدود الزمن. أشعر بالسعادة الآن، لمشاركة الآخرين هذا الاعتقاد بالطريقة الأكثر وحشية. لقد تمكنت من التجول في أفكاري – أفكار يائسة تضيق كلما ذهبت فيها إلى البعيد- في المناطق النائية، حيث أستطيع تلمس بعض المنافذ السرية هناك، لأكتشف فقط أن سجن الوقت دائري ودون مخرج.

باختصار، جربت كل الأشياء. تخليت عن هويتي من أجل تخطي كل ما هو تقليدي، والتمكن من التسلل نحو عوالم كانت موجودة قبل أن أولد. أعرف روائيين وجنرالات متقاعدين، يتذكرون وجودهم في حيوات سابقة، كعبيد في الطرق الرومانية، أو حكماء يجلسون أسفل شجر الصفصاف في لاسا. لقد حاولت استعادة كل أحلامي القديمة من أجل إيجاد مفاتيح ودلائل لحل هذا اللغز- وليكن معلوما لديكم، أنني أرفض عالم القرون الوسطى الرث والمبتذل لفرويد، وحاجته الملتوية للبحث عن الرموز الجنسية في كل شيء(كالبحث عن شذرات فرانسيس بيكون في أعمال شكسبير)، أو الأجنة الصغيرة الممتعضة التي تتجسس من مخابئها الطبيعية على الحياة الجنسية لوالديها.

في البداية، لم أكن مدركا للوقت، لم يكن له حدود لدي، لقد كان سجنا. عندما أبحث في طفولتي (وهي الطريقة الثانية الأفضل للبحث في أبدية المرء) أستطيع رؤية صحوة الإدراك التي أصابتني كسلسلة من الومضات الفضائية، كمساحات تتناقص تدريجيا، لتشكل كتلاً مشرقة من الإدراك، وتمنح ذاكرتي السيطرة على انزلاقها.

تعلمت الأرقام وتكلمت بطريقة أو بأخرى في وقت مبكر جدا، لكن معرفتي الداخلية بأن أنا أنا، وأن والديّ كانا والديّ، من الواضح أنها تشكلت لاحقا، ويبدو الأمر مرتبطا بشكل مباشر باكتشافي لفارق العمر بيني وبينهما. أعتقد أن المناسبة كانت عيد ميلاد أمي، في أواخر الصيف في القرية، أستطيع تحديد ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار أشعة الشمس القوية التي تخترق عقلي مباشرة حين أفكر في هذا الاكتشاف، وتداخل البقع الضوئية مع المساحات الخضراء في ذاكرتي. كنت قد طرحت أسئلة وقمت بتقييم للإجابات التي حصلت عليها. الأمر متطابق تماما مع ما تفترضه نظرية recapitulation؛ التي تقول بأن بداية الإنفعال الإنعكاسي في دماغ أسلافنا القدماء لا بد وأنه تزامن مع بداية شعورهم بالوقت.

بالتالي عندما واجهت كشفا جديدا، هو معرفة عمري، أربع سنوات، بالمقارنة مع عمر والِديّ ثلاثة وثلاثون وسبعة وعشرون، حدث لي شيء. لقد منحني هذا الاكتشاف صدمة هائلة وشعورا منعشا. كما لو أنني تعمدت للمرة الثانية، ضمن طقوس أكثر سماوية من طقوس الروم الكاثوليك التي

جرت قبل خمسين شهرا من الآن، والتي كان نصفها عويلاً ونصفها إحساساً بالنصر (أمي من خلال الباب نصف المغلق ومن خلف العادات البالية التي يتقيد بها الوالدان بالعادة، تمكنت من تصحيح قوس القسيس الأخرق، للأب قسطنطين فيتفينيتسكي)

شعرت بنفسي أسقط فجأة داخل وسط مشع ومتحرك، والذي لم يكن أكثر من عنصر الوقت النقي. تشاركت هذا الوسط- تماما كما يتشارك المغتسلون الفرحون مياه البحر- مع مخلوقات لم تكن من نفس الهيئة، يرتبط أحدها بالآخر من خلال التدفق الطبيعي للوقت، بيئة تختلف تماما عن العالم الوجودي، هنا، ليس فقط الإنسان من يستطيع الإدراك بل القرود والفراشات أيضا.

في تلك اللحظة، أصبحت مدركا، أن المخلوق ذا السابعة والعشرين بالأبيض والزهري الناعم الممسك بيدي اليسرى، هي أمي، وأن المخلوق ذا الثالثة والثلاثين، بالأبيض والذهبي الغامق هو والدي. كنت بينهما بينما هما يتقدمان إلى الأمام بذات الخطوات، تهاديت ثم هرولت ثم تهاديت مرة أخرى، من بقعة شمس إلى بقعة شمس أخرى على طول منتصف الطريق، في ممر حديقة أوكلينجز المزين في متنزه حيّنا، فيرا، في شارع سان بطرسبيرغ، روسيا، الذي أستطيع التعرف إليه بسهولة بينما أتذكره الآن. في الواقع من وجهة نظري الحالية المحايدة والتي لم تعد مسكونة بالوقت، عندما أنظر إلى ذلك اليوم من شهر آب في العام ١٩٠٣، أرى نفسي الصغيرة تحتفل بولادة حياة الإدراك لديها. لو أن ماسك يدي اليسرى وماسكة يدي اليمنى كانا حاضرين من قبل في عالمي الجنيني المبهم، لاختفيا خلف قناع رقيق ومجهول، لكن الآن ملابس والدي، زي حارس الفرس البرّاق، وذلك الانتفاخ الذهبي للدرع الواقي فوق صدره وظهره، يظهر كل هذا لي كالشمس. لسنوات عديدة لاحقة ظللت مهتما جدا بمعرفة عمر والديّ، أحاول التأكد منه كل سنة، كمسافر متوتر يسأل عن الوقت من أجل التحقق من ساعته الجديدة.

والدي، وليكن معلوما، كان قد خدم فترته العسكرية قبل ولادتي بوقت طويل. لذا أعتقد أنه ارتدى زيه وقلائد كتيبته القديمة في الحفل على سبيل المزاح.

لتلك المزحة، أدين أنا لأول بصيص كامل للإدراك - والذي سيكون له إنعكاسات لاحقة على حياتي، بما أن المخلوق الأول على الأرض الذي أدرك الوقت هو المخلوق الأول الذي ابتسم.

٢

لقد كان اكتشاف الكهف الأول (وليس كما يمكن أن يعتقده أتباع فرويد) هي ما كمنت وراء الألعاب التي كنت ألعبها وأنا في سن الرابعة. قماشة كبيرة، وأريكة بيضاء مغطاة بأشكال ثلاثية سوداء، موجودة بإحدى قاعات الرسم في بيتنا في فيرا، ترتفع في رأسي كنتاج هائل من الاضطرابات

الجيولوجية قبل بداية التاريخ. يبدأ التاريخ (بوعد من العدالة اليونانية) ليس بعيدا عن واحدة من نهايات هذه الأريكة، حيث أصيص الشجيرة الكوبية، مع أزهار زرقاء شاحبة، وأخرى مخضرة، تخفي نصف قاعدة التمثال الرخامي لديانا في زاوية الغرفة.

على الجدار مقابل الأريكة، مرحلة أخرى من التاريخ محفورة في إطار من خشب الأبنوس- واحدة من صور المعارك النابليونية حيث العرض والمجاز هما الخصوم الحقيقية، هنا يمكن للمرء أن يرى كل المجموعات ضمن مستوى واحد للرؤيا، عازفون جرحى، حصان ميت، نُصب تذكارية، أحد الجنود يوشك أن يطعن الآخر، والأمبراطور المحصن وسط جنرالاته يتمركز في ساحة المعركة المتجمدة.

يمكن للأريكة أن تبتعد بعض السنتمترات عن الجدار بمساعدة بعض الكبار، الذين يستطيعون استخدام كلتا أيديهم ثم ركلة قوية من واحدة من أقدامهم، لعمل ممر ضيق، أصنع له سقفا مريحا بمساند الأريكة وأغلق مخرجيه باثنتين من وسائدها. عندها أمارس متعتي بالزحف خلال هذا النفق المظلم، أتلكأ قليلا لسماع الغناء - إهتزازات الوحدة، تلك النغمات الحميمة التي يسمعها طفل صغير في مكان مخفي ومُغبر. من ثم بموجة من الذعر اللذيذ، بمصاحبة ارتطام الأيدي والركاب المسرعة على الأرض سأصل نهاية النفق، أركل الوسادات بعيدا، لتستقبلني شبكة من أشعة الشمس المنعكسة على الأرضية_ أسفل كرسي الخيزران المشغول في فيينا_ وذبابتان تتناوبان على الوقوف هناك.

الحلم، والأحاسيس الأكثر رقة، كنت أحصل عليها من كهف آخر، أصحو في الصباح الباكر أصنع خيمة من ملابس نومي وأدع خيالي يلعب بظلال الكتان البيضاء التي تنعكس بآلاف الطرق الغامضة مع الضوء الخافت، تلك الظلال التي تبدو كأنها تخترق تحولاتي الناقصة من مسافة هائلة، حيث أتخيل ذلك الحيوان الغريب الشاحب وهو يتجول على جوانب البحيرات.

السرير مع الشبكة القطنية الفضفاضة التي تغطي جوانبه يعيدني إلى متعة أخرى، كنت ألعب ببيضة كريستالية صلبة مزخرفة تركها أحدهم في أحد أعياد الفصح، اعتدت مضغ أحد جوانب ملاءات السرير حتى تبتل بالكامل، من ثم لف البيضة هناك بإحكام، فتتوهج جوانبها الملونة وتستعيد ذلك الإحساس الدافئ والمتوهج، وكأنها اكتمال لمعجزة التوهج والألوان. لكن ذلك لم يكن أقصى ما حصلت عليه من إشباع للجمال بعد.

كم هو صغير هذا الكون، (إذا قارناه بما يستطيع جيب الكنغر حمله)، كم هو تافه وسقيم بالمقارنة بوعي الإنسان، بقدرته على استعادة ما شكّله كفرد، والتعبير عن الأمر بالكلمات!

قد أكون مولعاً بانطباعاتي الأولى، لكنني أملك أسبابي لأكون ممتنا لها فهي من مهد لي الطريق للعيش في جنة حقيقية من الأحاسيس البصرية والعملية.

في أحدى ليالي خريف العام ١٩٠٣، خلال رحلة في الخارج، أستعدت ركوعي على وسادتي المسطحة وأنا أتكئ على نافذة قاطرة مخصصة للنوم (على الأغلب في أحدى قاطرات البحر الأبيض المتوسط المنقرض الطويلة الفاخرة، تلك التي تتشكل من ستة قاطرات باللون البني المصفر والألواح كريمية اللون) رأيت انفجارا هائلا لا يمكن تفسيره. ظهر لي مع حزمة عظيمة من الضوء أتت من جهة التلة لتستقر لاحقا في كيس من المخمل الأسود الذي يوضع به الألماس: الألماس الذي منحته لاحقا لشخصياتي الروائية للتخفيف من عبء غناي.

لقد استطعت إزالة العمى الذي غطى طفولتي بزخارفه، كعباي كانا باردين، لكنني رغم ذلك واصلت الركوع والتحديق. ليس هناك أجمل وأغرب من تأمل تلك الإثارات الأولى. التي تنتمي إلى عالم طفولي مثالي ومتناغم، والتي تشكل قالباً بلاستيكياً طبيعياً في ذاكرة المرء، تستقر دون أي جهد؛ ولا تبدأ بالعمل إلا عند استعادة الذكريات المراهقة، عندما تصبح قادرا على الاختيار ويصعب إرضاؤك. وأرغب أيضا بعرض الأمر مع الإشارة إلى كبت الانطباعات، الذي تعرض له الأطفال الروس العباقرة من جيلي، وكأن القدر كان يحاول منحهم ماهو مقدر لهم، بمنحهم أكثر مما يستطيعون مشاركته، في ضوء الكارثة التي ستمحو لاحقا العالم الذي عرفوه. تختفي العبقرية عندما يصبح لزاما إخفاء كل شيء، تماما كما فعلت مع الاطفال العباقرة ذوي الوجوه الجميلة والشعور المعقوفة الذين يلوحون بالهراوات أو يعزفون البيانو بإتقان، والذين تحولوا بالنهاية إلى موسيقيين من الدرجة الثانية بعيون حزينة وأمراض غامضة وأشكال مبهمة تعطيهم هيئات مخنثة.

رغم ذلك، ظل الغموض الفردي يضفي عذوبته على الذكريات. لا يمكنني إيجاد تلك الآلة التي شكلتني، لا في البيئة ولا في الجينات، البكرة المجهولة التي ضغطت حياتي لتشكل هذه العلامات المائية المعقدة، التي صار تصميمها الدقيق مرئيا، عندما قُدر لنور الفن أن يضيء حياتي.

٣

لتحديد ذلك بدقة، بمفهوم الوقت، وبعض الاستعادات من طفولتي، لابد لي أن أذهب عبر المذنبات والكسوفات، كما يفعل المؤرخون عند تعقب أجزاء من ملحمة ما.

في مواقف أخرى لا يوجد لدي نقص في المعلومات. أرى نفسي مثلا، واقفا حول صخور سوداء رطبة في الجانب البحري، بينما تعتقد الآنسة نوركوت، مربيتي الحزينة والضعيفة، أنني ألحق بها، وهي تتجول على طول الشاطئ المقوس برفقة أخي الصغير سيرجي. أضع بيدي لعبة على شكل سوار

بينما أزحف فوق الصخور، كنت أكرر كلمة "طفولة" بالأنجليزية باستمتاع، بشكل غريزي وبسرور عميق كأنها تعويذة، الكلمة بدت غامضة وجديدة، وأصبحت أكثر غرابة عندما تداخلت في عقلي الصغير الذي يفيض بالقصص والمعلومات مع قصص روبن هود وذات الرداء الأحمر، والأردية البنية للجنيات وقدراتهم القوية على الحدس. الصخور مليئة بالثقوب تملؤها مياه البحر الفاترة ترافق تمتماتي السحرية بتعاويذ خاصة، وأنا ألوح فوق تلك البرك الياقوتية الصغيرة. المكان بالطبع هو أبازي، في الأدرياتيك. الشيء حول معصمي، يبدو كخاتم ثمين مصنوع من مناديل خضراء ووردية شبه شفافة، وهو ليس أكثر من ثمرة من شجرة عيد الميلاد، أعطتني إياها أونيا أبنة عمتي الجميلة في سان بطرسبيرغ قبل أشهر قليلة. إحتفظت بها كأنها كنز عاطفي، إلى أن نمت فيها خطوط داكنة، كخطوط شعري المقصوص الذي اختلط مع دموعي في الحلم، خلال زيارة مروعة إلى مزين الشعر الكريه بجانب فيوم.

في ذات اليوم، في مقهى بجانب الماء، رأى أبي أثناء تقديم الطعام لنا، ضابطان يابانيان يجلسان على طاولة بالقرب منا، غادرنا فورا- طبعا ليس قبل أن أتناول بسرعة عصير الليمون.

السنة كانت ١٩٠٤، كنت في الخامسة، روسيا تحارب اليابان مع شعور عارم بالبهجة. الرسومات الأنجليزية التي عرضتها علينا الآنسة نوكورت بشكل أسبوعي أعادت إنتاج رسومات الحرب التي أنتجها الفنانون اليابانيون، كانت تظهر القاطرات الروسية كألعاب -بأسلوب التصويرية اليابانية_ ستغرق حين يبذل جيشنا جهدا في تثبيت المراسي في جليد بحيرة بايكال الغادرة.

لكنني أملك ارتباطا أقدم بتلك الحرب. في إحدى ظهيرات بداية العام نفسه، في بيتنا في سان بطرسبيرغ، تم إرسالي إلى مكتب أبي لأقول "مرحبا" لأحد أصدقاء العائلة، الجنرال كوروباتكين. بزيه الخشن الذي يئن جسده تحت وطأته، كان يمد نفسه ليوزع مجموعة من أوراق اللعب، على الأريكة حيث كان يجلس، وضع عشرة منها بمحاذاة بعضها البعض ليصنع خطا مستقيما. عندها قال لي " هذا هو البحر عندما يكون الجو هادئا" ثم عكس كل زوج ليصبح الخط المستقيم خطا متعرجا – وهذا " البحر العاصف" . خلط الأوراق وكان على وشك أن يصنع خدعة أفضل كما كنت أتمنى، عندما قاطعنا مساعده ليقول له شيئا. بنحنحة روسية مستنفرة، نهض كوروباتكين من مقعده بصعوبة، فلتت الأوراق من يده وقفزت على الأريكة.

ذلك اليوم، صدرت الأوامر بتولي كوروباتكين القيادة العليا للجيش الروسي في الشرق الأقصى. لهذه الحادثة تتمة أخرى لدي، بعد خمسة عشر عاما، أثناء عبور أبي الجسر من منطقة سيطرة البلشفيين في سان بطرسبيرغ إلى جنوب روسيا، أوقفه رجل كبير في السن، بدا كفلاح ملتحٍ يرتدي معطفا من

جلد الخروف. طلب من والدي ولاعة. تلك اللحظة استطاع أحدهما تمييز الآخر، كنت أتمنى لو أن العجوز كوروباتكين في تنكره الريفي هذا استطاع الإفلات من السجن السوفييتي، لكن ذلك لم يحدث. الذي أشعرني بالرضا في ما يتعلق بلعبة الأوراق السحرية التي أراني إياها، أن الأوراق إيضا تم العبث بها وفُقدت كلها، تماما كما حدث مع جيشه الذي اختفى، كل شيء سقط، كما حصل مع لعبة القطار خاصتي في شتاء عام ١٩٠٤-١٩٠٥، في فيسبادن، حين حاولت دفعه للتقدم فوق البرك المتجمدة في حديقة فندق أورانيون.

أعتقد أن تتبع مثل هذه التصميمات الموضوعية في حياة المرء، هي الهدف الحقيقي من كتابة سيرته.

٤

نهاية الحملة الروسية الكارثية في الشرق الأقصى، كانت مترافقة مع موجة من الاضطرابات الداخلية الغاضبة. بتشجيع من تلك الاضطرابات، عادت أمي مع أطفالها الثلاثة الى سان بطرسبيرغ بعد عام تقريبا من الحياة في المنتجعات الأجنبية.

كان هذا في بداية العام ١٩٠٥. أيامها كانت أحوال الدولة تقتضي وجود والدي في العاصمة، حيث سيفوز الحزب الديمقراطي الدستوري، والذي كان أبي واحدا من مؤسسيه، بأغلبية المقاعد في أول برلمان في العام التالي.

خلال واحدة من إقاماته القصيرة معنا في القرية ذلك الصيف، قال أبي إنه يشعر بخزي في مشاعره الوطنية، لأنني وأخي لا يمكننا القراءة والكتابة سوى باللغة الإنجليزية وليس بالروسية (باستثناء كاكاو وماما). وهكذا تقرر أن على مدرس القرية أن يأتي بعد ظهر كل يوم ليعطينا دروسا ويأخذنا في نزهة.

تعيدني ذاكرتي، وصوت الصفارة الحاد التي كانت جزءاً من أول زي بحارة أملكه، إلى تلك المصافحة الأولى مع أستاذي الرائع في الماضي البعيد. كان لفاسيلي مارتينوفيتشزهينوسيكوف لحية بنية مشعثة، ورأس أصلع، وعيون زرقاء صينية الشكل، مع انتفاخ جميل في الجفن العلوي.

أحضر لنا في يومه الأول صندوقا مليئاً بمكعبات مثيرة للاهتمام بأحرف مرسومة على جوانبها، كان يمسك بتلك المكعبات كما لو أنها أشياء لا تقدر بثمن (إلى جانب أنها تتشكل لصنع أنفاق للعبة القطارات خاصتي).

كان أستاذي يبجل والدي، فقد قام أبي مؤخرا بتجديد مدرسة القرية، بطراز قديم معتمدا على

التفكير الحر. يلبس ربطة عنق سوداء معقودة على شكل قوس، دون مبالاة. ويستخدم صيغة الجمع المخاطب عند التعريف بي، أنا الولد الصغير. ليس بالطريقة القاسية التي يفعلها الموظفون، وأيضا ليس كما كانت أمي تفعل في لحظات الحنان الجياشة، التي تصيبها حين تكون حرارتي مرتفعة أو حين أفقد قطارا صغيرا (كما لو أن صيغة المفرد كانت أضعف من حمل حمولتها من الحب)، بل كان يخاطبني برزانة وتهذيب رجل يتحدث الى رجل آخر لا يعرفه بما فيه الكفاية لاستخدام الضمير "أنت" .

بثوريته النارية، سيلفت أستاذي إنتباهي إلى النزاهة في بلادنا، وسنتكلم عن الإنسانية والحرية وبشاعة الحرب والحزن (ولكن إثارتها، كما أعتقد) وعن ضرورة تفجير الطغاة. وأحيانا قد يقوم بإحضار كتاب السلم الشعبي دولوي أوروزهي! (ترجمة بيرتا فون ستنر "موت والفن نيدار!") ويعرضني، أنا الطفل ذو الستة أعوام، إلى الاقتباسات المملة، التي حاولت دحضها؛ في ذلك العمر الصغير والأهوج تحدثت عن إراقة الدماء، وأنا أدافع بغضب عن عالم الألعاب خاصتي المؤلف من المسدسات وفرسان آرثر.

أثناء حكم لينين، تعرضت كل الفروع غير الشيوعية للاضطهاد بلا رحمة، تم إرسال زيرنوسيكوف إلى مخيم الأشغال الشاقة، لكنه تمكن من الفرار إلى الخارج، وتوفي في نارفا في العام ١٩٣٩.

أنا مدين له نوعا ما، في قدرتي على الاستمرار في امتداد آخر موازٍ لطريقي الذي كان يتوازى مع الطريق العام لذلك العهد المضطرب.

عندما قام القيصر في تموز من العام ١٩٠٦، بحل غير دستوري للبرلمان، عقد عدد من أعضائه من ضمنهم والدي جلسة تمرد في فيبورغ، وأصدروا البيان الذي حث الشعب على مقاومة الحكومة.

لهذا سجنوا بعد أكثر من سنة ونصف. أمضى والدي في السجن الإنفرادي ثلاثة أشهر، كان وحيدا ومرتاحا مع كتبه، وحوض الاستحمام القابل للطي، ونسخته الخاصة من دليل ج.ب مولر للجمباز المنزلي. حتى نهاية عمرها، حافظت أمي على رسائله التي استطاع تهريبها والمكتوبة على ورق الحمام بأقلام الرصاص (وقد نشرت في العام ١٩٦٥، في العدد الرابع من مجلة اللغة الروسية فوزدوشني بوتي، الذي حررها الروماني جرينبيرج في نيويورك).

كنا في القرية حين استعاد أبي حريته، وكان مدرس القرية هو من ترأس التحضيرات للاحتفال بخروجه، ارتفعت الرايات (بعض منها بالأحمر الصريح) لتحية والدي في طريقه من السكة الحديدية نحو منزلنا، تحت قوس من إبر التنوب وتيجان الأزهار الزرقاء، زهرة والدي المفضلة.

ذهبنا نحن الأطفال إلى القرية أيضا، حين أذكر ذلك اليوم أستعيد بوضوح شديد، إنعكاس أشعة

الشمس على النهر، والجسر، والصفيح المبهر، الذي يبدو أن أحد الصيادين تركه على السور الخشبي، وهضبة شجرة الزيزفون وكنيستها الوردية الحمراء وضريح من الرخام حيث وضعوا أمي الميتة لاحقا. أذكر أيضا الطرق المغبرة المؤدية إلى القرية، وشريط عشب الباستيل الأخضر القصير، مع مساحات رملية جرداء، تمتد بين الطريق والشجيرات الأرجوانية، خلف صف من الأكواخ المتهالكة التي تملؤها الطحالب. ويظهر المبنى الحجري الجديد للمدرسة بالقرب من المبنى الخشبي القديم، بينما يقودنا كلب أسود صغير بأسنان بيضاء ينطلق بسرعة لكن بصمت مطلق من بين الاكواخ، كمن يوفر صوته لإحداث انفجار صوتي سيتمتع بإصداره عندما يذهب به صمته في النهاية إلى العدو بسرعة أكبر.

٥

القديم والجديد، اللمسة الليبرالية والبطريركية القديمة، الفقر القاتل والثروة القدرية، مفاهيم تداخلت في اشتباك مخيف، في العقد الأول من قرننا. مرات عديدة خلال الصيف ونحن نتناول غذاءنا، في غرفة الطعام المشرقة، التي تزينها إطارات من شجر الجوز، في الطابق الأول من بيتنا في فيرا أن ينحني مانور ألكسي، كبير الخدم، بتعابير ممتعضة، ليبلغ والدي بصوت منخفض (خاصة في حال كان لدينا ضيوفا) أن مجموعة من القرويين يريدون رؤية السيد بارين في الخارج. بخفة يرفع والدي منديله عن حضنه ويستأذن أمي بالخروج.

يصلنا صوت الترحيب المهذب بأبي من قبل الفلاحين من إحدى النوافذ في الطرف الغربي من غرفة الطعام بالقرب من المدخل الرئيسي، حيث يمكن للمرء أن يرى الجزء العلوي من شجيرات زهر العسل المقابلة للشرفة. يصل الصوت إلينا حيث نجلس كأنه استقبال مجموعة غير مرئية لأبي غير المرئي أيضا. لا نسمع ما يُقال، لأن النوافذ التي يقفون أسفلها تم إغلاقها للإبقاء على الجو دافئا في الداخل. يمكن التخمين أنهم جاؤا لطلب وساطته في بعض المشاكل المحلية، أو طلب إعانة خاصة، أو لأخذ الإذن لحصاد بعض المحصولات من أرضنا، أو تهذيب بعض الأشجار.

عندما يكون ما جاؤوا من أجله منحة لمرة واحدة، كما كان يحدث في العادة، نتوقع أن يعود هذا الصوت مرة أخرى، كعربون امتنان، حيث يتم وضع بارين الطيب في صورة المحنة الوطنية، التي ألمت بهم كأن يتم ضربك وإلقاء القبض عليك والتحفظ عليك أمنيا من قبل قوات الأمن.

في غرفة الطعام، يُطلب مني ومن أخي الاستمرار بتناول طعامنا. تلقي والدتي من بين سبابتها وإبهامها، نظرة خاطفة تحت الطاولة لمعرفة ما إذا كان كلبها الألماني العصبي هناك.نسمع جملة "يوم واحد وتسقط" بالفرنسية من ملو غولي، وهي مربية والدتي الطاعنة في السن المتشائمة دائما،

والتي لا تزال تسكن معنا (بشروطها الفظيعة لمربينا الخاصين).

من مكاني على الطاولة سأرى فجأة من خلال واحدة من النوافذ الغربية حالة رائعة من الإرتقاء. هناك، للحظة، أرى أبي في بدلته الصيفية البيضاء مترامية الأطراف تتموج مع الريح بشكل رائع، أطرافه تتخذ شكلا عاديا غريبا، وسامته، ورباطة جأشه، كلها ترتفع نحو السماء.

ثلاث مرات، سيطير في هذا الشكل في رميات غير مرئية المصدر، سيرتفع أكثر في المرة الثانية عن الأولى، بعد ذلك في طيرانه الأسمى، سيرتفع وكأنه ارتفاعه الأخير، مثل واحدة من تلك الشخصيات الفردوسية على السقف المقبب للكنيسة التي ترتفع بشكل مريح، وهي تحمل في طيات ثيابها ثروة ما، بينما في الأسفل، يذوب الشمع تدريجيا في أيدي البشريين، واحدا تلو الآخر، لصنع سرب من اللهيب الرفيع في ضباب البخور، مع هتافات الكاهن عن الراحة الأبدية، زنابق الجنازات تخفي وجه من هو هناك، في نعش مفتوح بين الأضواء السابحة.

الفصل الثاني

١

منذ اللحظة الأولى التي أذكرها عن نفسي (من أجل الفضول والمتعة، ونادرا للإعجاب أو الاشمئزاز)، كانت الهلوسات موجودة. هلوسات شفهية، وبعضها الآخر بصرية، وفي الحالتين لم أستفد منهما كثيرا.

اللهجة المصيرية التي قيدت سقراط أو تلك التي حرضت جونيتا دارك، تحولت معي إلى مستوى آخر يمكن للمرء سماعه بمجرد رفع وإغلاق سماعة هاتف خط مشغول. فقط قبل النوم، أصبح غالبا واعيا لنوع من المحادثات أحادية الجانب، تجري في المقطع المجاور لذهني، مستقلة تماما عن الاتجاه الحقيقي الذي تتوجه نحوه أفكاري. أصوات مجهولة محايدة، ومنفصلة، أمسك بها تردد كلاما ليس له أي أهمية لدي، جمل اعتباطية بالإنجليزية أو الروسية، ليست موجهة لي حتى، وتافهة لدرجة أنني لا أجرؤ على إعطاء أمثلة عليها، ثقل التسطيح الذي أريد نقله، يعكر صفوه رتل من الأحاسيس التي أشعر بها.

هذه الظاهرة السخيفة تبدو كالنظير السمعي لبعض الرؤى التي تحصل في الفترة ما بين الصحو والنوم، والتي أعرفها أيضا جيدا. أعني أنها ليست الصور الذهنية المشرقة، تلك الصورة التي يستحضرها جناح الإرادة في الذهن (مثل وجه والدين محبين فارقا الحياة منذ زمن بعيد مثلا) ؛

والتي هي إحدى أشجع الحركات التي يمكن لروح الإنسان فعلها.

ولا أعني إيضا ظاهرة الظلال العائمة على شبكية العين الذي يحدثها إختلال التوزيع في السائل الدمعي بين الشبكية وبؤبؤ العين، والتي تظهر كأشكال شفافة منجرفة عبر المجال البصري.

ربما ما أفكر به هو أقرب إلى الأوهام المنومة، بقع ملونة، بصمة من صورة ستأتي، كأن المصباح رقم واحد أضاء توا، جروح أجفاني الليلية. ومع ذلك، فإن صدمة من هذا النوع ليست في الحقيقة نقطة انطلاق ضرورية للتطور البطيء والمطّرد للرؤى التي تمر أمام عيني لحظة إغلاقها، إنها تأتي وتذهب، دون مشاركتي أنا المراقب النعس، لكنها تختلف بشكل أساسي عن صور الأحلام التي أمارسها على حواسي. غالبا ما تكون سيئة. حيث يتم العبث بي من قبل أشكال شريرة، مخلوقات غليظة وأقزام منمقة مع أنوف وآذان متوردة. على الرغم من ذلك فإن لصوري هذه مع الوقت وقع المهدئ، وبدلا من أن تخفت جودتها تدريجيا، تصبح أكثر وضوحا كأنها معروضة على الجانب الداخلي للجفن، أشكال رمادية تمشي بين خلايا النحل أو ببغاوات سوداء صغيرة تختفي تدريجيا بين ثلوج الجبال، أو بُعد أرجواني يتداعى خلف الهوائيات المتحركة.

إضافة لهذا كله، أشكل أيضا مثالا جيدا لظاهرة "السمع الملون". ربما "السمع" ليس المصطلح الدقيق للأمر، بما أن الإحساس اللوني، يبدو كنتاج للفظ الشكل المعطى للحرف، في اللحظة التي أتخيل بها خطوطه الخارجية.

المد الطويل لحرف a بالانجليزية (وهذه هي الأبجدية الموجودة في ذهني ما لم ينص على خلاف ذلك) لديه بالنسبة لي لون الخشب الرمادي، لكن حرف a بالفرنسية يستحضر خشب الأبنوس المصقول. هذه المجموعة السوداء تتضمن أيضا حرف g الغليظة المقابلة (للمطاط البركاني) وحرف R التي تقابل (خرقة سوداء يتم تمزيقها) حرف n للشوفان، المعكرونة المتعرجة لحرف L، والمرآة المدعمة بيد من العاج للحرف o، أنا في حيرة من الفرنسية والتي أراها كامتلاء منطقة التوتر السطحي للكحول في كوب صغير.

بالمرور نحو المجموعة الزرقاء، هناك X الفولاذية، و Z الرعدية، و k للتوت. وبما أنه يوجد تفاعل خفي بين الصوت والشكل، أرى q بنيا أكثر من k، في حين أن s ليست باللون الأزرق الفاتح ل C، و a خليط غريب من الأزرق السماوي واللؤلؤي.

الصبغات المتجاورة لا تندمج، والإدغامات ليس لها لون خاص بها، ما لم يتم تمثيلها بحرف واحد في بعض اللغات الأخرى (مثلا الرمادي المنتفخ، لثلاثة أحرف روسية متتالية تمثل حرف SH، حرف بقِدم نهر النيل، الأمر الذي يؤثر على تقديمه بالإنجليزية).

أسارع إلى إكمال قائمتي قبل مقاطعتي. في المجموعة الخضراء، هناك f للأوراق القديمة، p للتفاح غير الناضج ، وt للفستق. المعكرونة الخضراء المخلوطة نوعا ما بالبنفسجي، هو أفضل ما يمكنني فعله لحرف w.

المجموعة الصفراء تشتمل على مشتقات ال e و I، و d الكريمي، و y الذهبي الفاتح، وU التي لا أستطيع التعبير عن قيمتها الأبجدية إلا من خلال جملة "نحاسي مع لمعان زيتوني". في المجموعة البنية، هناك النبرة المطاطية من حرف G ، وj الأكثر شحوبا، وشريط الحذاء المهتريء لحرف h. وأخيرا، ومن ضمن المجموعة الحمراء، لحرف B لدي صوت يسمى من قبل الرسامين لون ترابي أقرب إلى البرتقالي، m فانيلا وردية مضاعفة، وأخيرا أملك تطابقا مثاليا للحرف V مع "وردي كوارتزي" وجدته في قاموس مائيرز وبولس للون.

قوس قزح، بشكله الأولي والموحل، هو في لغتي الخاصة يقابل الكلمة صعبة النطق: kzspygv. وهو أول كاتب، على حد علمي ناقش حالة السمع الملونة في احتفالات ١٨١٢، وهو طبيب ألباني.

لا بد وأن اعترافات المصابين بالمتواليات الحسية، تبدو مملة وغير معقولة، لأولئك المحميين من إنجرافات مماثلة، المحصنين بجدران أكثر صلابة من التي أملكها. على الرغم من هذا يبدو هذا بالنسبة لأمي، أمرا طبيعيا جدا. أثيرت المسألة ذات يوم عندما كنت في السابعة، كنت أستخدم مجموعة من مكعبات الأحرف الأبجدية القديمة لبناء برج، وأقول لها بشكل عرضي بأن كل ألوان المكعبات غير صحيحة، اكتشفنا لاحقا أن بعض المكعبات لها اللون الذي كنت أراه مناسبا، إلى جانب تأثرها بصريا بالنوتات الموسيقية.

الموسيقى لا تثير فيّ حالة لونية على الإطلاق. تؤثر بي الموسيقى، ويؤسفني أن أقول ذلك، كمتوالية تعسفية لأصوات تثير بي تهيجا أقل أو أكثر. في بعض الظروف العاطفية يمكن أن أصمد أمام الموجات الغنية لصوت الكمان، لكن حفلات البيانو وجميع آلات النفخ، تضعني في جرعات صغيرة وتسلخني في جرعات أكبر منها. على الرغم من عدد حفلات الأوبرا التي أحضرها كل شتاء (أعتقد أنني حضرت رسلان و بيكوفايا عشرات المرات على مدى أعوام)، إلا أن ضعف استجابتي للموسيقى كانت تتضاعف مع العذابات البصرية التي تسببها لي، عدم قدرتي على القراءة خلف كتف بيمينز أو المحاولة عبثا تخيل الفراشات فوق أزهار الشمس في حديقة جولييت.

فعلت أمي كل شيء لتشجيع حساسيتي العامة للتحفيز البصري. لا يمكنني تعداد اللوحات المائية التي رسمتها خصيصا لي كما كانت تقول، أو شعوري الهائل بالكشف، حين أرتني الشجرة الأرجوانية التي تنمو من خليط الأزرق والأحمر!

في بعض الأحيان، في منزلنا بسان بطرسبيرغ، كانت تخرج مجموعة من المجوهرات من مخبأ سري في جدار غرفة نومها (الغرفة التي ولدت بها إيضا)، لتصنع منها كتلة كبيرة لأستمتع بها وقت النوم. كنت صغيرا جدا حينها، وكانت تلك التيجان المشعة والحلي والأقراط تعيدني إلى الأسرار والسحر التي كانت تغلف المدينة خلال حكم الأمبراطور. أيامها كان الصمت يغلف ليالي المدينة الباردة، الأرقام العملاقة، والتيجان، والتصاميم العريقة الأخرى التي صُنعت بها المصابيح الكهربائية الملونة، والياقوت، والزمرد، كلها كانت تصطف كقيد متوهج فوق خط الثلج المغلف للأسلاك على واجهات البيوت على طول الشوارع السكنية.

٢

أمراض طفولتي المختلفة جعلتني أقرب لأمي. كطفل صغير، كنت أظهر استعدادا غير طبيعي لمادة الرياضيات، الأمر الذي فقدته تماما في فترة شبابي ذات الموهبة الواحدة. تفاقمت هذه الموهبة أثناء مشاداتي مع الحمى القرمزية أو التهاب اللوزتين، عندما كنت أشعر بأشكال وأعداد هائلة تنتفخ بلا هوادة في دماغي المتألم.

فسر لي معلم أحمق اللوغاريتمات في وقت مبكر جدا، وكنت قد قرأت (في مجلة بريطانية، أعتقد أنها مجلة الورقة الخاصة للصبي) عن حاسبة هندوسية تستطيع بثانيتين إيجاد الجذر السابع عشر لنقل للرقم، ٣٥٢٩٤٧١١٤٥٧٦٠٢٧٥١٣٢٣٠١٨٩٧٣٤٢٠٥٥٨٦٦١٧١٣٩٢ (لست متأكدا من أنني حصّلت هذا فعلا، على أي حال الجذر كان ٢١٢).

كانت تلك هي الوحوش التي ترعرعت على هذياني، وكانت الطريقة الوحيدة لمنعها من الازدحام في نفسي هي استخراج قلوبها وقتلها. لكنها كانت أقوى مني بمسافات. كنت أجلس وأحاول بمشقة تكوين جمل تشرح الأمر لوالدتي. لكنها بتأثير من هذياني، استطاعت أن تدرك الأحاسيس التي أتكلم عنها، والتي كانت قد خبرتها بنفسها يوما، وقد كان من شأن تفهمها هذا أن يعود بكوني المتمدد، نحو قاعدته النيوترونية.

لتحليل السرقة والانتحال الذاتي في النصوص الأدبية من المفيد مقارنة العنصر الأساسي من روايتي الهدية مع الحدث الحقيقي. في أحد الأيام، بعد أيام طويلة من المرض، كنت مستلقياً على السرير وأنا لا أزال في حالة ضعف شديد، وجدت نفسي فجأة مصابا بخفة فرح ونشوة من الأكاذيب. أعرف أن أمي قد ذهبت لتشتري لي هديتي اليومية والتي تخفف عني وطأة مرحلة النقاهة من المرض هذه، وتجعلها مفرحة جدا. لم أستطع أن أخمّن هديتها هذه المرة، ولكن من خلال رؤية غريبة واضحة كوضوح الشمس، رأيتها تتجه بعيدا في شارع مورسكايا نحو شارع نيفسكي.

ميزت الضوء الذي رسمته زلاجات حصانها. سمعت حمحمة أنفاسه، والإيقاع الذي يحدثه صوت خصيتي الحصان المتضاربتين، والكتل المتجمدة والثلوج التي ترتطم بمقدمة المزلجة.

أمام عيني، وقبل أن تظهر أمي، تلوح لي خلفية الحوذي، بمريوله الأزرق المشدود على خصره بقوة، الساعة الجلدية التي تخرج من حزامه القديم تشير أن الساعة الآن (٠٢:٢٠). تبدو أردافه من أسفل المريول كانحناءات يقطينة محنطة محشوة وضخمة. رأيت فراء الفقمة الخاص بأمي، ونظرة الفشل التي تعلو وجهها الرشيق مع تزايد السرعة الجليدية، نظرة سيدة من سان بطرسبيرغ تقود في الشتاء. زاويتان كبيرتان من معطف جلد الدب الذي يغطيها من الأعلى وحتى أسفل خصرها كانتا مربوطتين بحلقات أسفل المقعد، ويقف خلفها في الزاوية الضيقة أجير بقبعة ممسكا تلك المقابض لدعمها.

لا أزال أراقب المزلجة، رأيتها تتوقف عند متجر تريومان (كتابة، حلي برونزية، أوراق لعب)، تخرج أمي الآن من متجره يتبعها الأجير الذي يحمل مشترياتها، والتي بدت لي كقلم رصاص. دهشت بأنها لم تحمل هذا الشيء الصغير جدا بنفسها، هذا الأمر غير المتطابق للأبعاد، أعاد لي شيئا بسيطا من "التمدد العقلي" _القصير جدا_ الذي كنت آمل أنه قد ذهب مع الحمى.

حين ركبت مرة أخرى بالمزلجة، استطعت مشاهدة الأنفاس التي يطلقها الجميع وتشكل دخانا مع ارتطامها في الهواء البارد، حتى أنفاس الحصان. شاهدت، أيضا، حركة العبوس المألوفة التي تفعلها أمي لإبعاد شبكة الحجاب القريبة من وجهها، وبينما أكتب هذا، تعود لي لمسة الرقة التي تشعر بها شفتي عندما أقبل خدها المغطى بالحجاب- مع رجفة البهجة الآتية من الثلج -.

بعد دقائق قليلة، دخلت أمي غرفتي. تحمل بين يديها ربطة كبيرة. كانت في رؤيتي أصغر بكثير

- ربما، لأنني صححت حسيا ما حذرني منه المنطق، والذي لا تزال بقايا لعينة منه عالقة في عالم هذياني الخاص- ثبت الآن بأن الشيء الذي جلبته لي، هو قلم رصاص عملاق متعدد الأضلاع، له أربعة أقدام طويلة وغليظة. كان معلقا كنموذج في نافذة المحل، افترضت هي أنني قد أرغب بامتلاكه، كما أرغب بكل الأشياء التي لم تكن قابلة للشراء. أضطر صاحب المحل للاتصال بوكيله، وهو "دكتور" ليبنر (كما لو أن الصفقة تملك بالفعل بعض الأبعاد المرضية).

تساءلت في لحظة ما، عما إذا كان مؤشر القلم مصنوعا من الرصاص الحقيقي، لقد كان كذلك. بعد بضعة سنوات، أرضيت فضولي بحفر ثقب في أحد جوانبه، وكان الرصاص يذهب مباشرة على طول الشق، حالة مثالية من الفن لأجل الفن قدمها فابر والدكتور ليبنر، بما أن قلم الرصاص كان كبيرا جدا للاستخدام، وطبعا، لم يكن مصنوعا للكتابة به أصلا.

"أوه، نعم،" كانت أمي تقول كلما ذكرت لها هذا أو ذاك الإحساس غير الطبيعي. "نعم، أعرف كل ذلك،" وبسذاجة غريبة نوعا ما كانت تناقش أشياء كضعف البصر، وتنتقد الأعمال الخشبية في الطاولة ثلاثية الأرجل، والهواجس، ومشاعر الديجا فو، والنزعة الطبقية التي تحملها عن أجدادها، وأنها ذهبت إلى الكنيسة فقط في الصوم الكبير وعيد الفصح.

مزاجها المختلف تمثل بالمسافة الصحية التي أبعدتها عن طقوس الكنيسة الكاثوليكية اليونانية وكهنتها. وجدت أمي جاذبية عميقة في الجانب الأخلاقي والشاعري في الإنجيل، ولكنها لم تشعر بحاجة لتأييد أي عقيدة في العلن. انعدام الأمان المخيف في الحياة الأخرى، وافتقارها للخصوصية لم تتمكن من أفكارها. أخذ تدينها شكل التدين النقي والعميق الذي يؤمن بوجود عالم آخر وباستحالة فهمه بشروط الحياة الدنيوية التي نملكها.

كل ما يمكن للمرء الحصول عليه هو لمحة، وسط الضباب والوهم، شيء حقيقي يكمن هناك، تماما كما يتمتع بعض الأشخاص بموهبة غير عادية على الاستمرار في الإدارك أثناء نومهم العميق، في مكان ما خلف وقائع كابوس متشابكة وعاجزة، تكمن الحقيقة الواقعية لساعة الإستيقاظ.